

فلسفة الجمال

عند توما الأكويني

د. رشيد ياسين عباس

جامعة صنعاء كلية اللغات

توطئة..

لزم من طويل ساد الاعتقاد في أوساط المعنيين بتاريخ الحضارة الغربية بأن العصور الوسطى الأوروبية، التي سادتها تعاليم الكنيسة الكاثوليكية و خضعت للمفاهيم السكولائية والتصوف، لم تسهم بقسط ملحوظ في تطوير الكنوز الحضارية التي ورثتها أوروبا عن العصر الكلاسيكي القديم. وقد ذهب بنديتو كروتشه في كتابه المعروف "علم الجمال" إلى أن هذا الحكم يصح كذلك على فترة الانبعاث الأوروبي التي تُعرف بالرينيسانس، فهو يرى في كتابه المذكور " أن في الإمكان القول بأن المبادئ والمعتقدات الأدبية والفنية في العصور الوسطى، مع استثناءات قليلة، ذات أهمية لتاريخ الحضارة أكبر من أهميتها لتاريخ العلم. وتصدق هذه الملاحظة كذلك على عصر النهضة الأوروبية، لأنه لم يوسّع الدائرة الفكرية الموروثة من العصور القديمة".^(١)

على أن للمفكرين المعاصرين رأياً مختلفاً في هذا الموضوع. ويمكن ملاحظة ذلك في الاهتمام المتزايد الذي تبديه الفلسفة والفكر الجمالي المعاصران نحو فلاسفة العصور الوسطى في أوروبا، ولاسيما القديس أوغسطين وتوما الأكويني. ويجد موقف عصرنا من تراث العصور الوسطى تعبيره الصائب في عبارات المفكر البلغاري تسوتشو بوياجيف :

" لا يكاد يوجد في يومنا هذا إنسان جاد يحمل الاعتقاد البالي القائل بأن العصور الوسطى هي مرحلة توقف وانقطاع غربيين عن المجرى المألوف للمدنية الأوروبية في العصور القديمة المشرقة وفي عصر الانبعاث الذي لا يقل عنها إشراقاً، وبأنها عصر انهيار عميق للعلم وعقم مطلق للمعرفة. فمصطلح " العصور المظلمة " الذي كان يعني ذات يوم عصر الإقطاع يبدو لنا الآن تعبيراً رثاً للغاية ولا يكاد يحتاج إلى تنفيذ".^(٢)

إن فلسفة القرون الوسطى، التي تبدأ في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد على رأي بعض المؤرخين^(٣) أو خلال القرن الثاني على رأي بعضهم الآخر^(٤) قد جمعت في ذاتها بين

تبارين ايديولوجيين أساسيين، هما الفكر الفلسفي الإغريقي القديم، ولأسيما آراء افلاطون وأرسطوطاليس والرواقيين وأفلوطين، والعقيدة المسيحية كما يعبر عنها الكتاب المقدس وتآليف آباء الكنيسة. وقد أدى امتزاج هذين التيارين إلى نشوء صلة وثيقة بين الفلسفة واللاهوت، وهي فلسفة ميّزت فكر العصور الوسطى برمته، فقد اتخذت الفلسفة المنقادة لوجهة النظر الدينية، خلال هذه الفترة الطويلة، لنفسها هدفاً آخر غير البحث عن الحقيقة (التي باتت معروفة ومدونة في نص الكتاب المقدس، كما كان يقول الرأي السائد آنذاك)^(٥)، إذ باتت مهمتها تقديم الأدلة على وجود الخالق وتفسير الطبيعة الإلهية والثالوث الأقدس وغير ذلك من قضايا اللاهوت. ومن الطبيعي أن هذا كله قد انعكس في الأفكار الجمالية التي سادت في العصور الوسطى، والتي كانت تذهب إلى أن للجمال وجوداً موضوعياً وأهمية ميتافيزيقية لارتباطه بالخالق ذاته. وبفضل هذا المفهوم الذي تمتد جذوره إلى الكتاب المقدس نفسه وإلى فلسفة افلاطون، حظيت مسألة الجمال، السماوي منه والأرضي، بمكان بارز في التآليف الفلسفية القروسطية. وأبرز فلاسفة هذه المرحلة بلا جdal هو القديس توما الأكويني.

وُلد توما الأكويني نحو عام ١٢٢٥ للميلاد في مملكة نابولي (جنوبي إيطاليا) لأسرة أرستقراطية^(٦). وانتسب إلى كلية الآداب في جامعة نابولي، إحدى الجامعات الأوروبية القليلة في ذلك العهد. وفي عام ١٢٤٤ انخرط في سلك الرهبان وسافر إلى باريس، ولكن أخوته الذين ساءهم تحوّلهم إلى راهب كمنوا له في الطريق واختطفوه وعادوا به إلى المنزل^(٧). بيد أن توما كان قد اختار طريقه، وهكذا نراه في العام التالي يرحل إلى باريس ويلتقي القديس ألبرت العظيم (Albertus Magnus) الذي تولّى تدريسه في باريس ثم في كولونيا (ألمانيا) بعد ذلك.

يعدّ توما الأكويني الممثل الكلاسيكي لتقاليد فلسفة العصور الوسطى المتمثلة في إخضاع الفكر الفلسفي للأغراض اللاهوتية. ولكنه خلافاً للقديس أوغسطين وديونيسيوس المزعوم وبويثيوس وغيرهم من لاهوتيين العصور الوسيطة، الذين انطلقوا من أفكار الإفلاطونية الجديدة في المقام الأول بنى فلسفته على تعاليم أرسطوطاليس مقتفياً خطى أستاذه ألبرت العظيم. وفي هذا الصدد يقول المفكر البلغاري رادي راديف : " لقد انتدب (الأكويني) نفسه لمهمة الدفاع عن آراء أرسطوطاليس الفلسفية وبذلك وضع للكنيسة مرتكزات جديدة تماماً مما أدّى إلى تغيرات في مواقفها"^(٨). ويتناول مفكر آخر مسألة تأثير الأكويني بالفكر الأرسطي على النحو التالي :

" لقد عكف القديس توما على كتابات المشائين بصورة واسعة... وكتب تعليقات تقيّد فيها بنص أرسطوطاليس تقيّداً شديداً وحاول أن يشرحه كاملاً. ومما لا ريب فيه أن هناك قرابة وثيقة بين عقليّتيّ القديس توما وأرسطوطاليس... وهذا هو السبب في أن عرض مبادئ القديس توما

يمائل من وجوه عديدة عرض أفكار أرسطوطاليس. يحدث هذا في ميدان المنطق، وفي الخطوط العامة لفلسفتها الطبيعية وفي ما وراء الطبيعة، وفي خلاصة فلسفتها في علم النفس والأخلاق. ولكن ينبغي ألا ننسى أن القديس توما، الذي تفصله عن سلفه ستة عشر قرناً، استخدم آراء أرسطوطاليس هذه بالذات لأغراض مختلفة جداً... وأكثر من ذلك أن القديس توما كان أشد ذكاءً من أن يسلم بالنسق الأرسطي^(٩) ببساطة، وكان المضمون العام لنسقه الفكري مختلفاً بشكل عميق. ولا يحتاج المرء سوى أن يتذكر أن كل ما بذله القديس توما من نشاط عقلي كان موجهاً نحو توطيد اللاهوت المسيحي، الذي أقيم على افتراضات غريبة تماماً على العقلية الهيلينية. "

هذه المقدمة كانت ضرورية لإستيعاب فلسفة الأكويني الجمالية، التي تمتد جذورها بعمق في نظرية أرسطوطاليس حول ما يسمى بالهيلمورفزم، أو ما يعني "تشكل المادة" بالعربية. ولابد من القول بأن القديس توما أفرد في مؤلفاته مكاناً ملحوظاً لقضية الجميل. وهذا الاهتمام بالجمال يسم العصور الوسطى برمتها، فهي تنظر إلى الجمال بوصفه تجلياً إلهياً، أو "ثيوفانيا" كما يقول المصطلح اللاهوتي أي تجلياً محسوساً لجمال الإله نفسه. وهذا الموقف الذي تكون بتأثير من الكتاب المقدس ومن عدد من المفكرين، بينهم افلاطون وفيثاغورس والإفلاطونيون الجدد والقديس أوغسطين وبويثيوس، وعلى الأخص بتأثير من المفكر اللاهوتي الأيرلندي "يوحنا سكوت آريوجينا"، يفسر لنا حساسية إنسان العصور الوسطى إزاء الجمال وبحثه عن جوهره ومعاييره.

يؤلف علم الجمال عند الأكويني جزءاً لا يتجزأ من نسقه الفلسفي العام الذي يستند إلى مفهوم "الشكل". وهذا المفهوم يوازي عنده مفهوم "الانتلخيا" في الميتافيزيقا الأرسطوطاليسية الذي يعني تحديداً المبدأ البنيوي في الأشياء. ولا يقصد بالانتلخيا شيء له بنية مستقلة، إنما هي هذا الذي ينتج شيئاً ما باتحاده مع المادة***. وبعبارة أخرى، فإن الشكل يعني المبدأ الذي يحدد جوهر شيء ما، أما المادة فهي المبدأ الذي يتقبل شكلاً ما ويعطيه طابعه الفردي. وهذان المبدأان لا يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر. فالمادة تتمثل في "قوة" تقبل شكل ما، بينما الشكل هو الذي يضيف على المادة وجودها الفعلي. "والكل الذي يتألف من المادة والشكل هو الجوهر (substance). وبتعبير آخر، فإن الجوهر هو الاتحاد العضوي لجميع الصفات المميزة للشيء الكائن".^(١٠)

ويوضح القديس توما نفسه الفوارق بين هذه المفاهيم على الوجه الآتي :

"... في الأشياء التي تتألف من مادة وشكل، لا يمكن أن توصف المادة ولا الشكل، ولا حتى الشيء نفسه بأنه هو. ومع ذلك فإن الشكل يمكن أن يسمى "ذلك الذي بوساطته يتحقق هو "

ما دام الشكل مبدأ الكينونة. ولكن الجوهر التام نفسه يمكن أن يوصف بأنه هو. أما الكينونة نفسها فهي التي بوساطتها يقال عن الجوهر إنه موجود". (١١)

وتوما الأكويني يؤكد مصطلح الشكل، لا بالمعنى المشار إليه وحسب، بل كثيراً ما يستخدمه بمعنى الماهية، التي تعني عنده الجوهر في اكتمال وجوده. وهذه الفكرة العامة عن النسق الفلسفي والمصطلحات الأساسية عند توما الأكويني لابد منها لفهم وجهات نظره الجمالية على الوجه الصحيح.

ولعل أشهر جزء من فلسفة الجمال عند الأكويني نظريته حول المعايير الصورية الثلاثة للجمال، وقد حددها بقوله :

" يستلزم الجمال ثلاثة أشياء، أولها التكامل أو الاكتمال (integritas)، لأن الأشياء التي يقع فيها النقصان قبيحة لهذا السبب، وثانيها التناسق المناسب أو الانسجام (consonantia)، وأخيراً الوضوح، لأننا نصف بالجمال تلك الأشياء التي تتمتع بلون مشرق". (١٢)

ويبرز الانسجام والوضوح بوصفهما من السمات الأساسية للجميل للمرة الأولى في تعليق القديس توما على " الأسماء الإلهية " لديونيسيوس المزعوم، فهو يقول في هذا التعليق " إن الله يضيفي الجمال على الأشياء لأنه علة الانسجام والوضوح في كل شيء. وهكذا فنحن نعت بالجمال ذلك الرجل الذي يتمتع بأبعاد متناسقة ولون بشرة مشرق". (١٣)

ومن المعروف أن التناسق، أو الانسجام، بوصفه من الشروط الأساسية للجميل، قد تخلل تحت اسم أو آخر الفكر الجمالي عند من سبقوا الأكويني من مفكري العصور القديمة أو مفكري العصر الوسيط. ولكن هذا المفهوم يكتسب عنده أبعاداً أوسع وأعمق ممن سبقوه. فهو يقول في كتابه " خلاصة اللاهوت " (Summa Theologiae)، وهو أشهر كتبه وأهمها (١٤): " عندما نتحدث عن التناسق بين شيئين فنحن نعني إما التناسق الكمي / بمعنى أن يكون الشيء ضعفي الآخر أو ثلاثة أضعافه / أو أي نوع من العلاقات المألوفة (habitudinis) بين شيء وآخر". (١٥)

ويعود توما الأكويني إلى مناقشة التناسق بمعناه الثاني في كتابه " في الرد على غير المؤمنين " (Summa Contra Gentiles) متناولاً العلاقة بين المادة والشكل، أو بين العلة والمعلول: " كل عامل يتطلب عمله وجوداً أولياً للمادة يمتلك مادة مناسبة لعمله / materiam proportionatam suae actioni بحيث أن ما هو موجود في العامل بالفعل يوجد كاملاً بالقوة في المادة، وإلا فإن العامل ما كان يستطيع أن يحقق جميع ما هو موجود فيه بالفعل". (١٦)

وإذ نفهم الأمور على هذا الوجه يتبين لنا أن التناسق هو استعداد المادة لتقبل شكل محدد. وبهذا يكتسب التناسق عند الأكويني أهميته كعامل أنطولوجي منظم لا توجد الجواهر بدونه.

وثمة نوع آخر من التناسق، هو ذلك التناسق الكائن بين الماهية والوجود. وطبقاً لهذا المفهوم فإن الأشياء تمتلك تناسقاً وانسجاماً لمجرد أنها توجد، لأن وجود شيء ما يعني الجمع بين ماهيته ووجوده^(١٧). وبما أن كل ما هو موجود متناسق، فلا مفر من الخروج بنتيجة مفادها أن كل ما هو موجود جميل، إلا إذا كان يشكو من نقص ما أو كان يفتقر إلى الوضوح اللازم.

والتناسق لا يخص العلاقات المحسوسة وحدها، فهو يمكن أن يعنني الانسجام العقلي المحض بين الأشياء، أو البنية المتناسقة للفكر. وثمة تناسق أخلاقي يتمثل في الانسجام بين الأفعال وبين ما يتطلبه القانون الأخلاقي، أو بينها وبين ما يمليه العقل، أو ما تمليه المشيئة العليا للقانون الإلهي^(١٨). وهذا النوع من التناسق ينتسب هو الآخر إلى ميدان الجمال. ويستند القديس توما في هذا الشأن إلى تقاليد عريقة تعود بدايتها إلى افلاطون، سوى أنه لا يتحدث هنا عن الجمال والعقل والفضيلة والخير بوجه عام، وإنما يتحدث تحديداً عن التناسق بين الأفعال والأفكار.

وتشتمل فكرة توما الأكويني عن التناسق على الكثير من التفرعات المعقدة، كما يلاحظ المفكر الإيطالي المعروف أمبرتو إيكو، فهي في الغالب لاتعني مجرد نمط من العلاقة بين شيئين، بل كثيراً ما تعني شبكة كثيفة من العلاقات. فالأشياء يمكن أن ينظر إليها بوصفها متناسقة في ما بينها من جهة، وبوصفها كذلك بالنسبة إلى كل يوحدها. وهذه الكلية من جانبها يمكن أن تكون واحدة في مجموعة من الكليات المتناسقة في ما بينها. وبهذه الطريقة، التي تأخذ شكل متواليية هندسية، يمكننا أن نصل في نهاية الأمر إلى مفهوم عن الكون بوصفه شكلاً. وهذه الكينونة الكلية يمكن أن تبدو لنا بوصفها جسداً متناسقاً.^(١٩)

والسمة الأساسية الثانية للجمال هي التكامل (وقد مرّ بنا هذا المصطلح سابقاً). ولا يظهر التكامل بوصفه صفة من صفات الجمال الصوري إلا في "خلاصة اللاهوت". وهو يعني في نظر توما اكتمال الصورة، أو انطباق شيء ما على ذاته. وهو يقول في هذا الصدد "إن الكمال يتحقق عندما يمتلك شيء ما كل ما يؤلف جوهره. فصورة الشيء الكلي هي كماله، الذي يتأتى من تكامل أجزائه. لذلك فالأشياء التي تشكو نقصاً ما قبيحة".^(٢٠)

وحين يتحدث توما الأكويني عن التكامل، أو عن الجمال عموماً، فهو يعني في الغالب الجسم البشري الذي يمثل في نظره واحداً من أكمل الأجسام. فالجسم البشري يجمع الروحي والمادي في سلسلة كبيرة من العلاقات المتناسقة ويبدو كأنه صورة مكتملة لبنية الكون المتناسقة^(٢١). وتكامل الجسم البشري يختل في حالتين : وجود نقص ما، كفقْدان أحد الأطراف

مثلاً، أو عندما تكون أبعاد الجسم غير متطابقة مع الحدود التي رسمتها الطبيعة. وبخصوص الحالة الثانية يقدم توما الأكويني التفسير التالي :

" من الجلي أن جميع الأشياء التي تتبع صورتها الطبيعية لها حد معلوم وقياس محدد للحجم والقامة ... وليس لجميع الناس قياس واحد. ولكن ثمة قياس لا يسع الكائن البشري أن يتخطاه، كما أن هناك قياساً آخر صغيراً لا أحد يتقاصر دونه." (٢٢)

وهذا يذكرنا بما قاله أرسطوطاليس في " فن الشعر " عن الحجم المناسب من حيث هو صفة ضرورية للأشياء الجميلة^(٢٣)، ولكن توما الأكويني يضيف على هذه الفكرة مزيداً من الدقة ومزيداً من العمق، فهنا لا يتعلق الأمر بحجم مطلق له حدود مقررة، وإنما بحجم يتناسب ومفهوماً عن شيء معين.

أما الشرط الثالث للجمال عند الأكويني فهو الوضوح. وهذا مفهوم ليس من السهل تحديده، لأن القديس توما يستخدمه في أكثر من معنى، وبالارتباط مع الجمال دوماً. والوضوح في أبسط معانيه هو سطوع اللون ونقاؤه، وهذا ما يمكن فهمه من بعض تعريفات " الجميل " التي أوردها الأكويني في " خلاصة اللاهوت ". فمن هذه التعريفات قوله " إننا نسمي الأشياء جميلة عندما تكون لها ألوان ساطعة"^(٢٤) أو قوله " يوجد الجمال أو الوسامة عندما يسير الوضوح والتناسق جنباً إلى جنب ... وبالتالي فإن الجمال الجسدي يتألف من أعضاء الجسد المتناسقة مع وضوح معين لا بد منه للون." (٢٥)

ولكن كلمة " وضوح " (claritas) تكتسب في أماكن أخرى معاني مغايرة تماماً، فهي تعني أحياناً " نور العقل "، كما يحدث عندما يدين القديس توما البحث الدائب عن المذات لأنه " يطفئ نور العقل الذي هو مصدر كل وضوح الفضيلة وجمالها." (٢٦)

ويتحدث الأكويني في " خلاصة اللاهوت " عن وضوح أجساد القديسين وعن تغير جسد المسيح وغير ذلك. ومن هذا كله نلاحظ أن الوضوح له عند توما الأكويني تداعيات صوفية وميتافيزيقية، فضلاً عن معناه المباشر. ويتجلى لنا مصدر هذا الاعتقاد عندما نضع في حسابنا أن الوضوح لا يكون إلا مع النور الذي يرتبط في عقلية إنسان العصور الوسطى بالخالق عز وجل. فالله نور كما جاء في انجيل يوحنا. وهو ألق في عيني أفلوطين^(٢٧)، وشعلة ونافورة ضياء في نظر ديونيسيوس المزعوم^(٢٨). وهذا التصور يدعمه الإسلام كذلك، فالقرآن الكريم يصف الله بأنه " نور السماوات والأرض " (٢٩). وقد خضع الغرب اللاتيني كما يقول أمبرتو أيكو لهذا التأثير الإسلامي من خلال ما ترجم من أعمال الفلاسفة العرب، كابن باجة وابن طفيل. وينبغي أن نضيف إلى ما تقدم أن أبناء العصور الوسيطة يميزون بميل ملحوظ إلى النور والألوان الواضحة.

والساطعة. وهذا ما ينعكس بقوة في الأعمال الفنية التي تعود إلى ذلك العصر كالتصوير البيزنطي والنوافذ المتعددة الألوان في الكاتدرائيات الغوطية.

ومن العناصر المهمة في فلسفة الجمال عند توما الأكويني ما يسميه هو بالرؤية (visio) ويعني بها ما نسميه في أيامنا هذه بالتلقي الجمالي. والنصوص التي بين أيدينا ليست شديدة الوضوح حول هذه النقطة، ولكن إحدى الفقرات في " خلاصة اللاهوت " تلقي عليها بعض الضوء :

" إن العقل البشري لا يكتسب معرفة تامة حول شيء ما منذ اللحظة الأولى. والأدنى إلى الصواب أن يقال إنه لا يدرك أول الأمر إلا جانباً واحداً من هذا الشيء، وهو بالتحديد يدرك كلفيته / quidditas / أولاً. وإذ ذاك فقط يستطيع أن يفهم خواص هذا الشيء وما يقع فيه صدفةً أو ما يعدّ عارضاً بالنسبة لماهيته. " (٣٠)

وهذا يعني أن التلقي الجمالي يمر ببضع مراحل. وتبدأ المرحلة الأولى بالتماس الحسي الذي نكتسب من خلاله مفهومنا الأولي المجرد عن موضوع تأملنا. وعندما نكتسب هذا المفهوم العام عن الموضوع يصبح في مقدورنا أن نلاحظ خواصه، وأن نميز الجوهرية فيه من العرضي، وأن نرى إلى أي درجة يؤدي وظيفته، وإلى أي درجة يطابق ذاته. ويجيء حكمنا الجمالي نتيجةً لهذا كله.

وإذ نفهم الرؤية الجمالية على هذه الصورة، ندرك أنها تمثل مساراً معقداً تلنقي فيه المدركات الحسية بالمعرفة العقلية لتؤلف موقفاً جمالياً على أساس مدى انطباق صورة ملموسة ما على ماهيتها.

ونستخلص من هذا أن القديس توما لا ينظر إلى جمال العالم المادي بوصفه ظاهرة موضوعية خالصة. صحيح أن هذا الجمال يوجد بوصفه أمراً ممكناً في التناقص والتكامل من حيث هما مبدآن أنطولوجيان ينظمان الوجود برمته، ولكنه لا يوجد في واقعه المحسوس إلا عندما ننخذ موقفاً جمالياً إزاء الأشياء. ويعزز توما هذا الاستنتاج بقوله :

" ... تسمى الأشياء جميلة عندما تسرنا رؤيتها. ولهذا يكمن الجمال في التناقص المناسب، لأن الحواس تستمتع بالأشياء ذات النسب الصحيحة من حيث أنها مماثلة لها، ذلك أن القدرة على النقاط المؤثرات عن طريق الحواس هي نوع من أنواع التناقص، شأنها شأن جميع القدرات المعرفية الأخرى. " (٣١)

ولا يسعنا هنا إلا أن نلاحظ أن توما الأكويني يكرر، ولو بكلمات أخرى، ما سبق أن قاله أرسطوطاليس في " السياسة " :

" من الواضح أنه يوجد بين الانسجام والإيقاع ما يماثلهما على نحو ما في النفس، ولهذا يزعم بعض الفلاسفة أن النفس ذاتها انسجام، بينما يذهب آخرون إلى أن النفس تحمل الانسجام في ذاتها. " (٣٢)

والأكويني يميز الجميل عن الخير خلافاً لمن سبقه من اللاهوتيين، كأوغسطين وبويثيوس وديونيسيوس المزعوم، وإن كان يعتقد بأنهما بمعنى ما شيء واحد لأنهما يقومان على أساس واحد، هو الشكل. ولكنهما رغم ذلك مفهومان مختلفان، لأن الخير له علاقة بالرغبة / appetitus / وبالتفكير في غاية ما، أما الجمال فله علاقة بالمعرفة، لأننا نصف بالجمال تلك الأشياء التي تسرنا حين نراها. ويخلص الأكويني من ذلك إلى القول " وهكذا يغدو واضحاً أن الجمال يضيف إلى الخير علاقة معينة مع القدرة المعرفية، ولهذا ينبغي القول بأن الخير يجب أن يُدعى بالشيء الذي يلبي رغبة ما، أما الجمال فيمكن الحديث عنه عندما يكون تلقّي الشيء بحد ذاته مصدر متعة. " (٣٣)

وهذا يعني أن الخير، سواء كان بمعنى النافع أو بمعنى الفضيلة، له غاية خارج ذاته، بينما الجمال غاية إنسانية بحد ذاته.

وتوما الأكويني، بانطلاقه من فهم كهذا للطبيعة ولوظيفة الجمال، يتخذ موقفاً متقدماً من الفن بالنسبة لعصره. فهو لا يعاني كأوغسطين مثلاً من صراع داخلي حاد بين انجذابه إلى الجمال وبين ما تفرضه الكنيسة الكاثوليكية من قواعد صارمة. وهو يبدي اهتماماً خاصاً بالموسيقى ويؤمن كما آمن فيثاغورس وأرسطوطاليس من قبله بأن الألحان والإيقاعات المختلفة لها تأثيرات متباينة على الناس، إذ تخلق لديهم حالات نفسية مختلفة. وهو يقول في هذا الصدد " من الواضح أن النفس البشرية تتأثر بالأصوات الموسيقية المختلفة على أنحاء متباينة، كما لاحظ أرسطوطاليس وبويثيوس. " (٣٤)

وعليه فلا غرابة إذا كان القديس توما يؤيد تمجيد الله بالغناء والموسيقى، لأن هذا التمجيد كما يقول يقوّي ارتباطنا بالخالق ويدفع الآخرين إلى تمجيده. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الموسيقى لابد لها من هدف ديني أو أي هدف عملي آخر. ففي " خلاصة اللاهوت " يتحدث الأكويني بأسلوب لا يدع مجالاً للشك عن المتعة التي تقدمها الموسيقى بوصفها مثلاً للمتعة الخالصة التي لا علاقة لها بقضايا الاعتدال والإسراف. والموسيقى على رأي الأكويني نوع من المتع يجمع بين الحسي والعقلي، وهي ليست بعيدة عن الخطيئة وحسب، بل تمثل أحد الامتيازات التي تسمو بالنوع البشري. (٣٥)

وما يقال عن الموسيقى يصدق كذلك على موقف الأكويني من مظاهر الفن الأخرى. فالإحساس الجمالي في رأيه إحساس نزيه وليس له من غاية أخرى وراء ذاته، وهو إحساس إنساني محض، فالإنسان وحده كما يقول توما^(٣٦) هو الذي يستمتع بجمال الأشياء الحسية لذاتها. وبوسعنا الآن، وقد استعرضنا أهم ما كتبه توما الأكويني عن الجمال، أن نلاحظ أن الأفكار الإغريقية الأساسية في هذا المجال هي نفسها مرتكزات فلسفته الجمالية. فتصور فيثاغورس للكون بأسره بوصفه بنيةً منسجمة يتكرر عند الأكويني، والوحدة والنظام في نظرية الشعر الأرسطية يقابلها التكامل والتناسق عند توما، واعتبار الموسيقى أهم الفنون أمر يشترك فيه الأكويني وغيره من فلاسفة العصر الوسيط مع فلاسفة الإغريق القدماء. ولكن هذا لا يعني أن توما الأكويني لم يضيف شيئاً إلى من تقدّموه، فالواقع أنه نظر بمزيد من العمق إلى بعض المفاهيم الموروثة، كما أنه أثار بعض جوانب عملية التلقّي الجمالي. ومما له أهمية خاصة في هذا الشأن محاولته الغوص في صميم الآلية السايكولوجية لعملية تذوق الأشياء الجميلة وتحديد دور الحواس والطاقات الذهنية في تكوين الإحساس الجمالي. ويمكن القول بأن هذا الموضوع الذي شغل فلاسفة الجمال الإنجليز في القرن الثامن عشر كان من جملة الموضوعات التي سبق الأكويني غيره إلى معالجتها.

ويعدّ تحليل الأكويني لمفهوم التناسق من إسهاماته الهامة في علم الجمال، فالمسألة هنا لا تتعلق بمجرد التناظر و الانسجام بين أجزاء صورة ما، بل بأمرٍ أعمق من ذلك بكثير، وهو كفاية الصورة لذاتها، أو بتعبير آخر، درجة التطابق بين الشيء الملموس وبين مثاله في الذهن. وهذا، دون شك، معيار أساسي سواء للجمال الطبيعي أو للإبداع الفني.

الهوامش..

1. B. Croce, Aesthetic Nonpareil Books, Boston, 1978
٢. تسوتشو بوياجييف، فلسفة العصور الوسطى الأوروبية (الطبعة البلغارية)، صوفيا، ١٩٩٤، ص٧
٣. المصدر السابق
٤. راڊي راڊيف، فلسفة العصور الوسطى (الطبعة البلغارية)، سنارا زاغورا، ١٩٩٤، ص١٨
٥. ت. بوياجييف، ص٧
6. Simon Blackburn, The oxford Dictionary of Philosophy, new York 1994, p.22
7. Julian Marias, History of philosophy , Dover Publications, New York, 1966, p.166
8. راڊي راڊيف، فلاسفة عظام (باللغة البلغارية)، ج١، صوفيا ١٩٩٠، ص١٢٤
9. Julian Marias, History of Philosophy, Dover Publications, New york, 1966, p.p. 167-168
10. Umberto Eco, The Aesthetics of Thomas Aquinas, Massachusetts. 1988, p.69 ت ١١
- بوياجييف، ص١٣٩
11. U. Eco, p-p. 70-71
١٢. ميخايل أوبسيانيكوف، تاريخ الفكر الجمالي (الطبعة البلغارية)، ١٩٨٢، ص٨٢
13. U. Eco, p.65
14. Donald Palmer, Looking at Philosophy, New York , 2001, p.126
15. U. Eco, p.82
١٦. المصدر السابق، ص٨٣
١٧. المصدر السابق، ص٨٥
١٨. المصدر السابق، ص٨٥-٨٦
١٩. المصدر السابق، ص٦٩-٩٠
٢٠. المصدر السابق، ص٩٩
٢١. المصدر السابق، ص١٢٥
٢٢. المصدر السابق، ص١٠٠
23. S. H. Butcher, Aristotle's Theory of Poetry & fine Art, London, 1895, p. 36
24. U. Eco, p. 103
٢٥. المصدر السابق
٢٦. المصدر السابق
27. The Essence of Plotinus, compiled by G.H. Turnbull, New York, 1934, p-p. 49-5028
28. U. Eco, p. 107
٢٩. القرآن الكريم، سورة النور، الآية ٣٥
30. U. Eco, p. 197
٣١. المصدر السابق، ص٥٦-٥٧
٣٢. أرسطوطاليس، السياسة، الفصل الثامن
٣٣. م. أوبسيانيكوف، ص٨٣
34. U. Eco, p.134
٣٥. المصدر السابق
٣٦. المصدر السابق، ص١٣٠

المصادر والمراجع..

- Croce, Aesthetic Nonpareil Books, Boston
- Simon Blackburn, The oxford Dictionary of Philosophy, new York 1994
- Julian Marias, History of philosophy , Dover Publications, New York, 1966.
- Umberto Eco, The Aesthetics of Thomas Aquinas, Massachusetts. 1988.
- Donald Palmer, Looking at Philosophy, New York , 2001.
- H. Butcher, Aristotle's Theory of Poetry & fine Art, London, 1895.
- The Essence of Plotinus, compiled by G.H. Turnbull, New ¹ York, 1934.

- القرآن الكريم، سورة النور، الآية ٣٥
- أرسطوطاليس، السياسة، الفصل الثامن
- تسوتشو بوياجيف، فلسفة العصور الوسطى الأوروبية (الطبعة البلغارية)، صوفيا.
- رادي راديف، فلسفة العصور الوسطى (الطبعة البلغارية)، ستارا زاغورا، ١٩٩٤.
- رادي راديف، فلاسفة عظام (باللغة البلغارية)، ج١، صوفيا ١٩٩٠.
- ميخايل أوبسيانيكوف، تاريخ الفكر الجمالي (الطبعة البلغارية)، ١٩٨٢.